سر الصندوق

قصة مصرية

بقلم الأستاذ دريني خشبة

كانت تصغي إلى حديثه في انتباه شديد وذهول ، وكانت الحمرة الفاتنة التي طالما تأججت بالغزل الملتهب في خديها قد استحالت إلى شحوب وصفرة ، وكانت عيناها النجلاوان قد أخذتا ترتعشان ، وقد بدا فيهما أثر البكاء الصامت

وكان ثمان يروي لزوجته الجميلة الهيفاء أسطورة ساذجة مما يطالعه الناس عفواً في بطون الكتب ولم يكن يدور بخلده أن حديثه يتدفق في قلب فتاته فيثير فيه الهم ويعكر عليه الصفو ، وينتزعها من أحلام الحاضر الجميل فيقذف بها في عالم الذكريات

— فلما مات الملك صفا الجو لأخيه الذي عاث الشياطين في فؤاده ، ورقصت الأبالسة في رأسه ، فلم يطق على لقاء الملكة الفاجرة صبراً ، بل انطلق في جنح الليل البهيم للقائها ... وكأنما كانت وإياه على موعد ، فقد تركت جثة الزوج الراحل الوفي مسجّاة على سريرها ، وذهبت دون أن تذرف عليها دمعة لتتبادل البشريات والتهاني هي وعشيقها الآثم

وهناك ... تحت الدوحة الحزينة الباكية التي شهدت غرام الملك ، وسمعت يمين الملكة ، أهوى العاشق الجديد على الفم الغادر يُقبّله ، غير مبال أن يكون ملك الموت الكريم مايزال يرف على القصر وينظر في حزن إلى الزهر الأسوان والشجر الكاسف أو أن يكون قد قبض الروح هناك ، وشهد ذاك الغدر هنا ، فيحمل إلى الله العلي رسالة البشرية الظالمة مع رسالة الموت الحق في آن ، والله بكل شيء عليم ...

لقد علقت الملكة أخا الملك وهويته كما هويت زوجةُ العزيز نبيَّ الله في مصر ، وكما هويت أنتايا بليروفون في اليونان

لعلك لا تعرفين هذه الأسطورة ! إنها بعينها قصة يوسف ، تلك القصة الرائعة التي تمثل على مسرح الزمان في كل زمان ومكان

علقت الملكة أخا الملك الذي شغفها حبا ؛ وقد تردد أخو الملك أول الأمر ، وجعل يصارع جبروت الحب ، لكن الملكة كانت جميلة وساحرة ، وكان لها جسم ممشوق يثير النداء القديم في القلوب المحيطة به ... لقد كانت تميس كالظبي ، وترنو بعينين مثل عينيه ، تمهد لها ابتسامات الفم الجميل الدقيق المشتعل كل سبيل إلى كل قلب ... لذلك لم يستطع أخو الملك أن يقاوم طويلاً ... فاستسلم ، وجرفه تيار الحب ، وقامت العلائق الأثيمة بينه وبين الملكة

ولما كانت الملكة هي التي تطارد عاشقها بحبها فلم تكن تخشى شيئاً في سبيل لقائه والانفراد به ... لقد كانت تنسرق في ظلام الليل من مخدع الزوج الوفي المريض لتتقلب في أحضان خليلها المسكين ، حتى إذا بلت أوام قلبها الشرير عادت دون أن تستشعر

وخزة من ضميرها الميت ، فتجد زوجها يبكي ويشكو من علته ، ولو درى لبكى وشكا من زوجته

ولم تمض أيام حتى كان العاشق وصياً على العرش وقائماً مقام الطفل الصغير ولى العهد ، وراعياً للطفلة البائسة التى فقدت أباها أشد ما تكون فى حاجة إليه

ومضى عام أو نحوه ، ثم قيل إن ولى العهد مريض ، وإن علته قاسية قاتلة ، وإنه فى حاجة إلى الشمس المنعكسة من الثلج فوق قمم الجبال

ترى ، هل كان مريضاً حقاً ؟ أم أراد الوصى على عرشه حاجة فى نفسه فهو يخفيها لحينها ؟ !

وذهبوا بالطفل البرئ إلى قمة جبل منيف شاهق فى مملكة مجاورة ، وخصصت له طائفة من الخدم من بطانة الوصى

ولم تمض أشهر حتى جاء نعى ولى العهد ، ولكن ليس كما يجئ نعى أحد من الناس . لقد قصوا فى ذلك قصة عجيبة لو صدقت لكانت أسطورة فى أسطورة ذكروا أن العلة اشتدت بالغلام الذى كان يضيق بالدواء وبالخدم ، فتغفل حراسه وانسرق فى غابة قريبة ، فلم يزل يتغلغل بين الأشجار حتى أمن الأنظار ثم انتحر ...

— أجل ، سأقص عليك كيف فعل ، فإنهم يروون فى ذلك قصة هى إلى الخيال أقرب منها إلى الحقيقة ...

يقولون إنه ما زال منطلقاً فى الغابة لا يدرى أين يستقر ولا ماذا عساه يفعل ، وكان الطقس بارداً والريح زمهريراً ، فلما غربت الشمس أو كادت ، تطرّح الغلام عند جذع شجرة هائلة ، ثم أخذت جفنيه سنة من النوم فاستغرق فى سبات عميق

— انتظرى ، فسأروى لك كل شىء ... ثم يقولون إن سرباً من الكراكى وعصافير السنونو كان آيباً من رحلته الطويلة إلى الشمال فشهد الغلام مستلقياً عند جذع الشجرة ، فذهب رائد الطير ليتحسس الخبر ، ثم عاد إلى السرب ، فما هى إلا لحظة حتى أقبل الطير كله يحمل الزهر الجميل فجعل يلقيه فوق الطفل ، ثم أخذ الطير يرف فوق الغابة ويعود بالزهر ليصنع منه مهاداً وثيراً لولى العهد ... وانطلقت العصافير والكراكى ... وأصبح الصباح وأرسلت الشمس أشعتها خلل الأفنان فسقط منها شعاع فوق الطفل الذى لم يستيقظ بعد ...

وأقبل كركى جميل فجعل يغنى ويهتف بالطفل ، لكن الطفل ظل نائماً ولم يستيقظ ... وأقبل كركى آخر وأخذ ينشد ويغرد ، ويقف على الجبين الباهت الناصل الشاحب ... لكن الجبين الباهت الناصل الشاحب ظل ساكناً ولم يتحرك

وهنا وصل المسس الكثير ، ووقف الحراس مسبوهين مشدوهين ... وتقدم رئيسهم فانحنى فوق الجثة الهامدة فحملها ، وجعل يمطرها بدمعه الكريم الحزين ...

وحزنت الملكة أياماً ثم فاءت إلى هواها فأخذت فيه من جديد كأنه لم يحدث هذا الحادث المؤلم لولى العهد .

— انتظرى فسأروى لك حديث الطفلة ... فهم يذكرون أنها ظلت أياماً تبكى ، وتسأل أين ذهب أخوها ، وكانوا يقولون لها إنه ذهب ليحضر لها باقات الورد من الغابة ، وإنه لا يلبث أن يعود ... فلما مضى العام أو تصرم معظمه ولم يعد ولى العهد ، أخذت وحشة الفتاة اليتيمة تتضاعف ، وبدأت تحس مرارة العيش بعد أبيها الملك وأخيها ولى العهد ... وبدأت

الدنيا تنقلب فى عينيها وفى قلبها ظلاماً حالكا برغم مباهج الملك المحيطة بها ، وبرغم الموسيقى التى تبكى كل صباح ، وكل مساء فى حدائق القصر ، وبرغم الأنوار الخاطفة المتألقة التى تحارب ظلمات الليل ، فتطغى عليها الظلمات ، وتنشر على لألائها ظلال الحداد والحزن ... لأن ظلمات الليل وحدها تعرف كل شئ ولأنها شهدت كل شئ

— ثم أصبح الصباح يوماً وجاءت وصيفة الفتاة إلى الملكة وهى تصرخ وتندب وتشق جيبها ، لأن الفتاة فرت ، ولأنهم بحثوا عنها فى كل مكان فلم يقفوا لها على أثر !!

هل ذهبت تسأل الناس عن الغابة لتاقى أخاها ؟

إن الغابة فى أرض مملكة أخرى غير هذه المملكة فيا ترى أين تذهب الفتاة ، ومن يدلها على مكان أخيها ، وهل يذكرها أحد أنه جثة هامدة ، أو رفات سحيق فى قبر ضيق مظلم ... ؟

والجديد اليوم أن الملكة أخذت تستيقظ من أحلام هواها ، لقد كان حزنها الجديد أمض على نفسها من كل حزن ، لأنه حزن متجمع متمكن ، ولأنه حزن صادف ما تفتح فى نفس الوصى على العرش من أمانى ومآرب .. لقد شعرت الملكة أنه يريد أن يتخلص من كل الأشخاص الذين يضايقونه ليخلص له الملك ، وليصبح الآمر الناهى ، وليكون السيد المطلق ... ولقد شعرت أيضاً أن دورها قد جاء مثل دور زوجها الملك ، ودور ابنها ولى العهد ودور ابنتها البريئة الضعيفة التى أبقت لأنها لم تستطع ذلك البعد القاهر المرير عن أخيها

جلست الملكة وحيدة فريدة تحت الدوحة المعهودة تفكر ثم تفكر ... وأخذت أطياف الذكريات والموتى ترقص فى هواء الحديقة الخانق الكريه ... وأخذت قبلات الغرام الأثيم ترقص مع الذكريات سافرة متهكمة مطلة على الملكة من حدق النوار ومقل البنفسج وأعين النرجس ، وآماق البنسيه . وكانت هذه القبل تسقط كالسهام فى حشاشة الملكة لأنها كانت تنشر رائحة الماضى كأنها تنشر رائحة صارخة من قبر قديم ... ومضت سنوات قلائل ... ولم يعرف أحد أين ذهبت الأميرة الصغيرة التى لم تكن قد بلغت السابعة من عمرها بعد

ووقعت الجفوة بين الوصى الذى أصبح ملكاً وبين الملكة التى لم تصبح شيئاً ... ولم يكن الملك يجهل ما يقوم بنفس صاحبته من غيظ وحنق فكان يحوطها بالجواسيس ويرصد لها العيون كل مرصد ، وكانت هى تحس بهم يحدقون بها ويترصدون كل حركة من حركاتها ، ولم تكن تجهل أنهم يفعلون ذلك بأمر الملك ، وينقلون إليه خبر كل نفس من أنفاسها ، وعدد الخطوات التى تخطوها فى كل حجرة وفى كل مكان

عرفت ذلك الملكة فحفظته وأضمرته وتظاهرت بالسكون ، وآثرت العزلة ، ثم راحت تدبر خطتها للقضاء على غريمها

وقد عاونتها فى ذلك خادمة عجوز من خدمها اللواتى أقصين عنها بأمر الملك ، فما زالت تتملق بعض عيونه عليها وترشوه وتغمره بالأعطيات والهدايا واللمى ، حتى أصبح أطوع لها من بنانها ، فلما وثقت به أسرت إليه بما تحاوله من إنقاذ الملكة من عسف الملك ، فارتعدت فرائصه أول الأمر ، ثم لان قليلاً قليلاً ، ثم وعدها أنه سيعمل بما ترسم له حتى تنجو الملكة ...

وقد أفلح تدبير العجوز ، وكان الرأى على أن تفاجئ الملك عصبة من الرجال الأقوياء ممن لم يقروا تصرفاته فى الوصاية ، وممن شموا رائحة الجريمة تنتشر فى كل تصرفاته منذ وفاة الملك ، فعقدوا الخناصر على القصاص منه لسيدهم وولى عهدهم ، وإن كانوا يعلمون أن للملكة فى كل ما تم يداً مجرمة تستحق القطع مثل يد عدوهم وأشد تنكيلاً ...

وفى هدأة ساكنة من ليالى أغسطس ، كانت أشباح ملثمة تتهادى كالظلال فى حديقة القصر ، وتقفز من شباك هناك إلى حجرة الملكة

وقبل أن يتنفس الفجر صعقت هذه الأشباح كلها ، لأنها سمعت صوتاً مدوياً فى ردهة العرش المجاورة لمخدع الملك ينذرهم فيقول : « مكانكم أيها الأشقياء وإلا قتلتم جميعاً . . . ليترك كل منكم سلاحه على الأرض وليتقدم نحو السور ، ثم ليقف هناك حتى يؤذن له ... »

وألقى المتآمرون أسلحتهم ، ثم نظروا فرأوا أشباحاً ملثمة أخرى تصوب نحوهم سهاماً لو طارت عن قِسِيِّها لنفذت فى صدورهم فقضت عليهم قضاء مبرما

وأشرقت الشمس واستيقظت المدينة ، وما دهى الناس إلا أن يروا شوارعهم تعج بجنود كثيرين يهتفون باسم ولى عهدهم الذى زعموا أنه انتحر بالورد منذ عشر سنوات . . . أو الذى زعموا أن عصافير السنونو قد قضت عليه بالورد حين قصدت أن تمهد له منه فراشاً

وظل الجنود يهتفون للملكهم الشرعى ويطوفون فى المدينة برأس الطاغية ، وعرف الملك الفتى ما كان ينتويه الرجال الملثمون فعفا عنهم ...

أما أمه ... نعم ... أمه ... يا لهول اللقاء !

لقد وضع فوق وجهها لثاماً حتى لا يراها وهو يكلمها ...

— أجل ، هى لذتك البهيمية التى حسنت لك قتل أبى ، ثم ائتمارك بى لألحق بوالدى حتى يخلو لك الجو أنت وخليلك

— إعف عنى يا بنى واصفح ما دام الله القادر قد حرسك ، وإنى لأقسم لك إن صدقت لى قسماً أننى كنت أريد به ما صنعته أنت أمس !

— ولم لا تريدين له ذلك وفى طبيعتك الشر ... إن مثلك لا يفكر إلا فى الجريمة لأنه فطر عليها

— يا بنى إنه الشيطان قد أضلنى فلا تقتلنى بكلامك ألف مرة قبل أن تقتلنى بسيفك مرة واحدة !

— الشيطان ! ويلكن يا بنات حواء ! دائماً تتهمن الشيطان بما ليس يحسن شيئاً منه كما تحسنه إطمئنى ، فلن أقتلك ... لقد خسرت قيمتك لأنك شهدت عقبى تدبيرك

— حقاً يا بنى ! وإنى على كل ما كان لآسفة !

— أحب أن أسألك قبل أن نفترق إلى الأبد لماذا عاشرت أبى وأنت لا تحبينه ؟

— ترفق بى يا ولدى !

— لا بد أن تجيبى ؟

— أقسم لك إذن أننى لم أحببه ، و . .

— إذن لماذا تزوجته ؟

— لأنه ملك وللتاج بريق يخلب ألباب العذارى

— أى أنك آثرت بريق الملك على منى القلب

— هذا هوَ ! ولو كان لى عقل ناضج ما فعلت ذلك ! !

— وماذا كنت تحسين تحوى باعتبارى ابنك الوحيد البكر ؟ !

— ألا تترفق بى يا بنى ؟

— قلت لك لا بد من أن تجيبى قبل أن نفترق إلى الأبد ، وأحب أن تصدقى

— كنت أحس نحوك بكل محبة وعطف إلا إذا ذكرت أباك

— فماذا كنت تحسين إذن ؟

— كنت أمقتك ، لأنك ثمرة زواجنا الذى لم يقم على دعائم من الحب

— وأختى ؟ !

— أختك ؟ !

— أجل ... أختى التى فرت من عسفكم

— إنى أجد ريحها فى كلامك ... أصدقنى يا بنى كما صدقتك ، هل تعرف أين هى أختك ؟

— وماذا يهمك منها ؟

— يهمنى منها أننى كنت أحبها حباً لم أشعر به لا نحوك ولا نحو أبيك ... لقد قتلنى بعدها عنى إن الوقيعة التى تمت بينى وبين عمك كان سببها بُعد ابنتى ... لقد كرهته وكرهت الدنيا كلها حين قيل لى إنها فرّت !

— عجيب أن توجد هذه القطرة من الخير فى نفسك !

— ألا تقول لى إن كانت ما تزال على قيد الحياة؟

— إذن فاطمئنى ...

— إذن هى عائشة

— إنها عائشة

— وهل هى قريبة من هنا ؟

— بل هى هنا ... فى هذا القصر !

— بنى ! ...

— ماذا ؟..

— ألا أراها ؟

— لن تريها على أنك أمها ، فقد أخبرتها منذ ثمانى سنوات أنك مِت ، ففرحت ، ولم تذرف عليك دمعة كما تفعل البُنَيّات الصغيرات إذا توفّيت أمهاتهن . وثق أنها إذا علمت أنك ما تزالين حية فإنها تنقلب إلى طبيعتك الإجرامية وتقتلك .. أنا بالطبع لم أذكر لها شيئاً عن جرائمك لأن مثل هذا لا ينبغى أن يقال للصغار

— إذن مُرْ أن أراها مرة واحدة قبل أن أموت ...

— سترينها ، وإن كنت أكره لها ذلك ، لأن نظراتك تدنس كل إنسان تلحقه

— ما أقساك !

— جاء اليوم الذى تعدين فيه كلمة قاسية أشد من قتل زوج وإزهاق روح ابن ، وهدم سعادة أسرة وتقويض مملكة ... إسمعى ... احذرى أن تذكرى لها شيئاً ، فإنك إن فعلت فإنها سوف تسفهك ولن تصدق من دعواك شيئاً ...

ثم لقيت الفتاة أمها دون أن تدرى من هى ، وإن تكن قد عجبت للدموع التى كانت تنهمر من عينيها ... وعاشت الأم بعد ذلك فى شبه دَيْر تصلى لله وتستغفره ، ثم ماتت ... ومن يدرى ، عسى أن يغفر لها الله ...

— انتظرى فسأروى لك كيف فر ابن الملك ، وكيف كانت أسطورة عصافير السنونو والورد كذباً مفترى ، وكيف نشأ الفتى فى بلاط أحد الملوك من أصدقاء أبيه ...

* * *

ولكن عزيزة لم تشأ أن تصغى إلى الحديث

أكثر مما فعلت ... لقد كان القلق بادياً عليها ، وكان الوجوم يشتد بها ثم يشتد كلما أوغل نعمان فى قصته المؤسية المشجية

لقد نهضت وقد راح الدمع ينهمر من عينيها المحزونتين ، ثم ذهبت إلى مخدعها ، فهب نعمان فى إثرها وقد ظن أنه سبب لها الألم بروايته تلك المأساة ... هب ليلاطفها ويرفه عنها ، ويذهب عن فؤادها الحزن ... لكنها أغلقت الباب وراءها ، ثم قالت له حينما هتف بها : « انتظر قليلاً أرجوك ... » وهتف بها ثانية فلم ترد عليه ، فجلس على كرسى ذى مسندين ، وراح يفكر فيما آلت إليه الحال من أمر تلك القصة ...

وبعد قليل انفتح باب المخدع ، ثم برزت منه عزيزة فى ثوب ضاف أسود ، وليس فى وجهها أثر من دمام (تواليت) وفى يدها حقيبة صغيرة منتفخة قليلاً ، ثم قالت :

— نعمان ... الوداع يا عزيزى !

— الوداع ؟ ! عزيزة ! ماذا تقولين ؟

— أقول لك الوداع ... إنى ذاهبة !

— رباه ماذا حصل ؟!

— لا شىء ...

— أصدقينى يا عزيزة ... ألست زوجتى ؟

— بلى ... أنا زوجتك ، ولكنى أرجوك أن ترسلنى ...

— رباه ... أكاد أجن ... أريد أن أعرف ماذا حدث !

— لم يحدث شىء ... الأفضل لنا معاً أن ترسلنى ، تصدق على الفتاة التى أحبتها كما أحببتك بكلمة الطلاق !

— ما هذا ؟ ماذا تقولين ؟ أأنت مريضة ؟

— لست مريضة قط !

— إذن ماذا حدث ؟

— أفضل ألا تعرف

— بل يجب أن أعرف !

— إذن ... وما دمت مُصِرًّا ، فاعلم أنى خدعتك !

— خدعتنى ؟ وكيف ؟

— خدعتك يوم بكيت لك ليلة زفافنا لتغفر لى زلتى ... ألم أقل لك إن شاباً أغوانى ؟

— بلى ، ولقد غفرت لك ونسينا كل شىء ...

— إذن فاعلم أن أحداً من الناس لم يغوني ، بل إنى كنت متزوجة زوجاً لم أحبه ، فلما عاشرته ضقت به ثم هربت ، وقد لقيتنى أنت فعطفت علىّ عطفاً جعلنى أحبك بل أعبدك حتى نسيت السنوات الثلاث التى عشتها مع الرجل الأول

— وما فى ذلك ؟ !

— ألا تدرى ؟

— لست أرى فى كل ذلك شيئاً !

— كلامك غريب يا نعمان

— ليس غريباً كما تظنين !

— عجيب !

— أى عجيب ؟

— كيف أكون لك زوجة وأنا زوجة رجل آخر ؟ !

— وما العمل إذن ؟

— سأذهب إلى زوجي الأول

— وأنت لا تحبينه ؟ !

— أجل !

— وكيف يكون هذا ؟

— لأني لا أريد أن تكون آخرتي مثل آخرة الملكة بطلة قصتك ؟ !

— ماذا تعنين ؟

— أعني أن لي طفلين مثل الطفلين في قصتك !!

— تعنين أنك تفضلين أن تعودي إليهما !

— أجل ... هو ذاك !

— وعبد الحميد !

— أوه ! عبد الحميد ! مسكين !

— هذه مشكلة يا نعمان !

— مشكلة وأي مشكلة !

— لكنه ما يزال صغيراً ، وسينسى !

— أتدعينه بغير أم ؟ !

— هذا من غير شك عزيز عليّ ، لكنها مصيبة ذات شطرين ، ولا بد ...

— لا بد ماذا ؟

— لا بد أن نقتسمها معاً .

— وهل تضمنين أن يقبلك رجلك الأول ؟

— من غير شك سوف يقبلني ، لأنه كان يعبدني ...

— وإذا لم يقبلك فما العمل ؟

— سأرى أولاً ...

— وكيف أقدمت على الزواج مني وأنت متزوجة ؟

— هذه زلة ، وإن تكن كبيرة ، لكنك ستغفرها لي

— مشكلة !

— ألا ترسلني يا نعمان ؟

— لا قيمة لكلمة الطلاق لأن زواجنا باطل !

— إذن وداعاً ... وداعاً أيها الرجل الذي حماني ومد ظله عليّ ... وداعاً برغمي يا أعز الناس عليّ ... ماذا أعمل ... لقد ذكرت نجيباً وصفية فدارت الأرض بي ، وضاقت عليّ بما رحبت ...

* * *

هذه هي القصة التي رواها لنا نعمان أفندي عبد الجليل عند ما قابلناه مرة يتردد على مستشفى المجاذيب حيث كان يزور زوجته عزيزة ، وقد ذكر لنا أنها جنت لأن زوجها طردها لأن ابنيها نجيباً ، وصفية كانا قد اختارهما الله ، ولأنه كان قد طلقها منذ زمان بعيد .

دريني خشبة

آلام فرتر

الشاعر الفيلسوف جوته الألماني

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

وهي قصة عالمية تعد بحق من آثار الفن الخالد

تطلب من إدارة مجلة الرسالة .

وثمنها ١٥ قرشا